

## التداولية وأفعال الخطاب عند الإمام الصادق (عليه السلام)

م.م. مؤيد بدري منهي السهلاني

## الملخص

يسعى هذا التوجه اللساني الجديد إلى تجاوز (المستوى الدلالي) دلالة المقولة الحرفية ، إلى محاصرة بنية الخطاب الإحاطة بكل وقائعه ، باعتبار أن الخطاب رسالة لغوية يوظفها المخاطب لغرض التواصل مع الآخرين .

إن مقارنة هذه الخطابات الفنية مقارنة تداولية ، تفرض علينا تجاوز حدود النظر إلى نصوص الخطاب على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية إلى ما فوق ذلك إنه نشاط لغوي يحاول الإمام الصادق (عليه السلام) أن يعبر من خلاله عن أغراض ومقاصد تهدف إلى تصوير مواقف شخصية واجتماعية بالألفاظ والعبارات ، والتأثير في المتلقين بأي شكل من الأشكال باعتبار أن اللغة ليست وسيلة للتواصل الاجتماعي فحسب وإنما هي أداة لتغيير الوقائع والتأثير في العالم وصنع أحداثه .

وقبل أن نبسط خطوات التحليل التداولي لهذه النماذج من خطاب الإمام يجدر بنا أن نقدم صورة وجيزة لهذا الاتجاه الجديد من الدراسات اللسانية :

## أولاً : نظرة في الجذور التاريخية للتداولية :

يهيمن على ساحة الدراسات اللغوية عند العرب تياران رئيسيان هما : تيار الدراسات الشكلية للغة بشقيها (البنوي/التوليدي) ، وتيار دراسات اللغة في سياق التواصل الاجتماعي أو ما يمكن تسميته بالاتجاه الوظيفي في دراسة اللغة<sup>(١)</sup> .

يقف الاتجاه الأول في دراسة اللغة عند حدود وصف وتفسير النظام اللغوي معزولاً عن منتجه وعن السياق الذي أنتج فيه ، ومن ثم فإنه ينظر إلى الخطاب على أنه بنية مغلقة ومنتھية لا علاقة له بالإنسان والتاريخ<sup>(٢)</sup> .

وانصب قدر كبير من جهد نقاد الاتجاه الثاني ومفكره على تحرير الخطاب من قيد النسق ، وعبودية البنية إلى النظر في السياق وعناصره ، متجاوزاً بذلك الدراسة الشكلية الصارمة للغة ، ويعني كل ما سبق الإغلاء من شأن منتج الخطاب ومثله فقد أصبح ينظر إليهما على أنهما شريكان في نسج خيوطه ، إذ لا يقل أحدهما عن الآخر ، وكذا النظر في طبقات الخطاب المختلفة التي أنتج فيها الخطاب ، وأثرها في تشكيل بنيته .

نذكر من أنصار هذا الاتجاه (بوتسنس، موتان ، كرايس، اوستين، فتجنشتاين ، مارتينه) حيث يربط هؤلاء بين مفهوم التواصل ومفهوم القصدية<sup>(٣)</sup> . إن اشتراط القصدية في التواصل يحيل إلى أن هذا الفعل غير عشوائي، إنما هو فعل مخطط له، ويعني ذلك ان تحليل معاني العبارات والألفاظ اللغوي رهين بتعيين أغراض المتكلم ومقاصده العامة من الخطاب<sup>(٤)</sup> .

إن تجاوز عمق الخطاب إلى النظر فيما يحيط به ، يبشر بتحول منهجي واضح في مسار الدراسات اللسانية ، ومن ثم بدا اهتمام اللسانيين واضحاً ب: علاقة العلامات اللغوية بمستعملها ، وكيفية استعمالها وتأثيرها<sup>(٥)</sup> .

وهذا ما تقتضيه النظرة الشمولية للخطاب من ضرورة مراعاة الأبعاد الثلاثة المكونة له وهي على التوالي<sup>(٦)</sup>:

- البعد التركيبي
- البعد الدلالي
- البعد التداولي

وعليه فإن التكامل بين هذه المستويات بات ضرورياً . وبهذا تكون أمام توجه لساني معاصر تكمن أهميته في معالجة مشكلات عدة في التحليلات اللغوية الشكلية ، ولذلك يذهب (ليتتش) إلى أن التداولية تسعى إلى خلق حلول لبعض هذه المشكلات<sup>(٧)</sup> ، خاصة المتعلقة منها بمنتج الخطاب ومثليته ، وشروط الإنتاج وغيرها ...

اكتسبت التداولية تعريفات عدة ، بعضها يتجه وجهة وظيفية ، وبعضها يركز على أهمية السياق وبعضها الآخر يركز على الجوانب المختلفة للمعنى في التواصل<sup>(٨)</sup> . ومن أقدم التعريفات التي قدمت لها ، نجد تعريفاً لـ(شارلز موريس) سنة ١٩٣٨ يرى فيه أن التداولية فرع من الفروع السيميائية ، حيث تعنى بدراسة علاقة العلامات بمؤولها ، وهذا التحديد يوسع من مجال التداولية لتشمل العلامات اللغوية وغير اللغوية<sup>(٩)</sup> .

ويظهر تعريف آخر (لفرانسيس جاك) يقر فيه أن التداولية تتطرق إلى معالجة الظاهرة اللغوية باعتبارها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت نفسه<sup>(١٠)</sup> . إن مقارنة - نماذج خطاب الإمام الصادق (عليه السلام) المختارة - مقارنة تداولية ، تدفعنا إلى محاولة الإجابة عن أسئلة على النحو التالي<sup>(١١)</sup> :

- من يتكلم ؟ ومع من يتكلم ؟
- وإلى من يوجه كلامه ؟
- ماذا نصنع بالضبط حين نتكلم ؟
- هل يمكن أن نركن لدلالة المقولة الحرفية لغرض ما ؟
- كيف يمكن أن نقول شيئاً ، ونحن نقصد بقولنا شيئاً آخر؟

إن ما يسعى إليه التحليل التداولي هو محاولة الكشف عن النظام الدلالي المتكلم في الخطابات برمتها ، وهذا النوع من التحليل يعلي في الوقت نفسه من شأن منتج الخطاب

ومتلقيه لأن كل منهما يشغل وظيفة (كاتب الخطاب وقارئه) . من هذا المنظور يعدّ الخطاب نتاج تواصل تفاعلي بين منتج ومتلقيه<sup>(١٢)</sup> . وهذا ما توصلنا إليه سابقاً في كون الخطاب عند الإمام (عليه السلام) هو فاعلية تواصلية .

لذا فإن منظور الدراسة التداولية لا يقف عند دراسة السياق بقدر ما يسعى إلى إظهار ذلك التفاعل والتأثير المتبادل بينه وبين النصوص الخطابية بما يعلل لنا ذلك الخطاب بشكل موضوعي ، ومن ثم لزم الكشف عن كل العناصر المشكلة للسياق الذي أنتج فيه هذا اللون النثري وكذا الوقوف عند جوانبه المختلفة .

### ثانياً : ضروب السياق في الخطابات المختارة :

من أجل فك شفرات نصوص الخطاب عند الإمام الصادق (عليه السلام) وقراءتها قراءة واعية ، تتفاعل مع لغة الخطاب تفاعلاً كلياً<sup>(١٣)</sup> ، لا بد أن يمتلك القارئ معرفة تمكنه من البرهنة على مدى اتساق الخطاب وانسجامه انطلاقاً من السياق الذي أنتج فيه . وعلى هذا الأساس حدد لنا بعض الدارسين العناصر المكونة للسياق والمتمثلة في : معرفة هوية المشاركين في عملية التلقي (المتكلم/الكاتب ، المستمع/القارئ) والإطار المكاني والزمني للفعل اللغوي ، والهدف ، والموضوع ونوع الخطاب ، والقناة واللغة المستعملة والقوانين التي تتحكم في عملية إنتاج الخطاب من متكلم إلى آخر<sup>(١٤)</sup> .

سنقتصر في تحليلنا للسياق على أهم العناصر المشكلة له ، والتي تعد من أهم العوامل المساعدة على ظهور الخطاب وتشكله ، وهي : المرسل ، المرسل إليه ، والإطار المكاني والزمني والغاية من الموضوع . وإذا كان تحليل السياق يقتضي الوقوف عند هذه العناصر الأساسية حسب وجهة نظر هايمس فإننا لن نغض الطرف عن أي جانب من جوانب السياق الذي بإمكانه أن يساعدنا في فهم النصوص الخطابية وتحليلها . إن الحديث عن هذه العناصر يفضي بنا للحديث عن أنواعه والتي يمكن حصرها فيما يأتي<sup>(١٥)</sup> :

- السياق المصاحب

- السياق السابق ويتفرع إلى سياق الموقف والسياق الثقافي

### ١-السياق المصاحب (السياق غير اللغوي)

يشمل هذا النوع من السياق مجموعة من الإشارات والإيماءات التي تصاحب الخطاب أثناء التلفظ به ، وكذا مظاهر الأداء الصوتي المختلفة من نبر وتنغيم وهذه الخصائص تتعلق بالنصوص الشفاهية أكثر من النصوص المكتوبة ، ومادامت الخطابات المدونة للإمام (عليه السلام) - التي بين أيدينا - مكتوبة ، فإنه يتعذر علينا معرفة الأداءات السيميولوجية

المصاحبة لها ، كما يخفى علينا طرائق التلفظ بها ، وما تبرزه هذه الطرائق من دلالات<sup>(١٦)</sup> . وهذا يعني أن ليس هناك معلومات وبيانات كافية لتحليل السياق غير اللغوي لخطابات الإمام (عليه السلام) ، وما يصحب ذلك من تغييرات صوتية أو حركية . إن منظور هذه الدراسة سيعتمد على تحليل نماذج خطابات الإمام (عليه السلام) المختارة باعتبارها نصوصاً مكتوبة ، علماً إن القول بأن خطاب الإمام (عليه السلام) خطاب مكتوب لا يلغي خاصيته الشفاهية حين ابتداعه إذ انه كان يدل على أحاديث تدور في مجالس العامة والمولين كونه حديث إمام مفترض الطاعة يعطي تعاليمه باستمرار وتواصل مع الجميع ، لذا فان هذه الخطابات المكتوبة يحاول فيها الإمام الصادق (عليه السلام) ومن خلالها تقديم رؤية شاملة عن واقع العصر الذي عاش فيه وكذلك لها الاستمرارية والبقاء لانها حية خالدة ومتجددة ومواكبة لكل عصر وزمان .

ومن هنا كان البحث عن علاقة خطابات الإمام الصادق (عليه السلام) بوقائع ذلك العصر وظروف إنتاجه .

إن البحث في هذه العلاقة يفضي بنا إلى طرح جملة من التساؤلات :

- إلى أي مدى أثرت ظروف المكان والزمان في إبداع خطابات الإمام (عليه السلام) ؟
- وما هي وجهة النظر التي يحاول الإمام الصادق (عليه السلام) أن يعرضها من خلال الخطابات ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها ، فإنه يلزمنا الكشف عن جوانب سياقية أخرى مصاحبة للخطاب ومتمثلة في سياق الموقف ، والسياق الثقافي .

## ٢- سياق الموقف في العصرين الأموي والعباسي :

تأسست الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وذلك سنة ١٣٢ هـ ، ولقد تكلمنا في التمهيد عن ذلك فلا نريد الإطالة ، وما يعيننا ، هنا ، أن قيام دولة إسلامية جديدة يبشر بملامح حياة جديدة ، ومغايرة لما كانت عليه في الحقبة السابقة ، وبدت ملامح التغيير واضحة على الحياة الاجتماعية وبدا التفاوت الطبقي ملحوظاً ، إذ انقسم المجتمع آنذاك إلى طبقتين :

الطبقة الارستقراطية وتشمل فئة الحكام والأمراء وما تعلق بحاشيتهم ، وهذه الطبقة تعيش حياة مليئة بالترف والبذخ ، فبالغوا في بناء القصور وتزيينها واقتناء الجواري وإقامة البساتين والحدائق .

إن هذه الحياة المريحة والمنعشة تستلزم وجود عناصر أخرى تضيء على هذه الحياة

جواً أكثر انتعاشاً وطرباً، إنها وبكل اختصار مجالس الخمر والمجون واللهو، والغناء التي أفسدت أخلاق الحكام، وقضت على ضمائرهم، فأنهكوا الفئة المستضعفة من الشعب (والتي تمثل الطبقة الثانية) بالضرائب، وسلب أموالهم خفية وعنوة، فأدى كل ذلك إلى انحرافات سلوكية، ومظاهر لا أخلاقية لم يعهد بها سابقاً كاللصوصية، والسطو، واختلال الأمن والاستقرار وكثرة المجاعات والمشردين والمتسولين. وعلى الرغم من هذا الظلم العظيم والاستبداد الشديد إلا أن الحياة الثقافية في ذلك العصر كانت مشرقة، إذ انفتح المجتمع العربي على ثقافات متعددة، وديانات مختلفة، وأصبح حوار الديانات ممكناً، مما أدى إلى ظهور علم الكلام مثلاً، الذي تأثر إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية، ونشطت حركة الترجمة آنذاك كثيراً مما أدى إلى تطور فكري ملحوظ، وركي حضاري كبير.

وقد قرب الخلفاء والأمراء إليهم كثيراً من الأدباء والعلماء، لينالوا حظهم من هذا البذخ والترف، إلا أن ما حصلوا عليه لم يكن لما أبدعوه من فكر وأدب بل لمسايرتهم للنظام الحاكم.

أما الفئة الأخرى البعيدة عن القصر من الأدباء والكتاب والشعراء وغيرهم من العلماء، وكذا أغلبية أفراد الشعب فقد تحول الكثير منهم إلى متسولين، لا يجدون من العيش ما يكفي حاجاتهم الضرورية.

وكما كان رأي الإمام الصادق (عليه السلام) في الدولة الأموية كان رأيته في الدولة العباسية، من حيث الظلم للرعية، والاستبداد في الحكم، والابتعاد عن الإسلام. وقد نهى عن المؤازرة للدولة الجديدة، كما نهى عن المؤازرة للدولة المنقرضة وصرح بذلك في مواطن عدة<sup>(١٧)</sup>.

انعكس فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية على خطاب الإمام الصادق بوصفه المصلح والمربي والقائد، فالتقط في خطابه تلك الوقائع والأحداث فمثلاً: سئل (عليه السلام) عن البناء لهم وكرامية النهر فأجاب: ((ما أحب أن اعقد لهم عقدة، أو وكيّت لهم وكاء، ولا مدة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد))<sup>(١٨)</sup>.

فسياسته تقضي بحرمة التعاون مع الظالمين، وعدم الركون والمراجعة إليهم ولا يرى لزوم ما يقضون به، لأنّ حكمهم باطل وغير نافذ<sup>(١٩)</sup>.

ومن شواهد ما رواه عبد الله بن مسكان قال: ((سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يتراسون، فوالله ما خفت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك))<sup>(٢٠)</sup>،

وربما كان من الأهمية الإشارة إلى دلالات هذا الخطاب ، فقد يكون اختيار الإمام (عليه السلام) لهذا الخطاب دلالات تطابق مسمياتها في الصورة الخلقية والسلوك ، يقول : ((ياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يتأسون) فيه تحذير عن متابعتهم ، والرجوع إليهم والاتيان بصيغة التفاعل ليدل على أنهم أظهروا وأن أصل الفعل وهو الرئاسة حاصل لهم وهو منتقي عنهم كما في تجاهل وتغافل ، ثم علل التحذير بقوله (فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك واهلك) نظيره ما رواه جويرية بن مسهر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال لي : ((يا جويرية إنه لم يهلك هؤلاء الحمقى إلا بخفق النعال خلفهم)) الخفق صوت النعل أما هلاكه فلأنه يورث الفخر والعجب والتكبر وغيرها من المهلكات ، وأما إهلاكه فلأن الرئيس المقدم والأمير المعظم إذا ضل عن العدل وعدل عن طريق الحق يتبعه العوام كافة خوفاً من بطشه وطمعاً في جاهه وما له فضلوا بمتابعته وأضلهم عن سبيل الرشيد بسيرته القبيحة ، هذا إذا كان الرئيس جاهلاً ظاهراً ، وكذا إذا كان عالماً غير عادل فإنه كثيراً ما تعتريه شبهة وتعرضه زلة فيضل بها عوام المؤمنين فإنهم يقلدونه في ظاهر أحواله ويعتمدون عليه في أقواله وأفعاله بل ربما يقولون في أنفسهم إذا فعل هو هذا فنحن أولى به منه، ومن ثم قال النبي ﷺ : ((أخاف على أمتي زلة عالم))<sup>(٢١)</sup> ، ومن شواهد ما رواه محمد بن مسلم قال : سمعت الإمام الصادق (ع) يقول : ((أترى لا اعرف خياركم من شراركم ؟ بلى والله وإن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه ، إنه لا يبد من كذاب أو عاجز الرأي))<sup>(٢٢)</sup>.

إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه ، كناية عن حب الرئاسة وهو أشد الفسوق وأعظمها إذ كل فسق غيره يعود ضره إلى الفاسق وهذا الفسق يعود ضره إلى تخريب الدين وإلى الفاسق والخلق أجمعين ، وقوله : انه لا يبد من كذاب أو عاجز الرأي: العقل والتدبير، ورجل ذو رأي أي له بصيرة وحذق بالأمر ، ولعل المراد بعاجز الرأي : الجاهل المدعي للعلم ، المتكفل للحكومة بين الخلق ، الذي ضعف عقله ونقص علمه واتبع هواه . فلا يهتدي إلى نصيح الخلق ومصالحهم كما ينبغي ، وبالكذاب والسلطان المدعي للخلافة وإمارة الخلق كذاباً<sup>(٢٣)</sup> ، والرئاسة حق للعالم الرباني ضرورة أن التصرف والتدبير في أمر الخلق وإقامة العدل بينهم قبل تحقق العلم والمعرفة والوقوف على مراتب حالاتهم وقدر حقوقهم وحقوق الله تعالى في الأوامر والنواهي وغيرها محال<sup>(٢٤)</sup> .

### ٣- السياق الثقافي :

إن الكشف عن الخلفية الثقافية للخطاب يمنحه قيمة خاصة من ناحية ، كما يساعد على فهمه وتأويله من ناحية أخرى .

### طبيعة لغة الخطاب :

نعني بطبيعة لغة الخطاب : نوع هذه اللغة التي تعد أداة لسانية مهمة للتعبير عن أفكار الكاتب ومعتقداته .

أنشأ الإمام الصادق (ع) لغة خاصة لخطاباته وقد ضمن هذه اللغة بحلل البديع كثيراً من الأمثال المستقاة من واقع البيئة العربية والاقتراسات من القرآن الكريم ، والشعر والإشارة الى بعض الجوانب التاريخية ، وهذا ما نحاول الكشف عنه لاحقاً في مبحث خاص بالتناص ، وإذا كانت لغة الخطابات تمتاز بالمحسنات البديعية ومنها : السجع والجناس ، فمن هنا يحق لنا أن نطرح السؤال التالي : ما مدى فعالية هذه المحسنات في تحقيق تماسك نصوص الخطابات وانسجامها؟

يحقق السجع في خطابات الامام(ع) دوراً مهماً في ربط أجزاء النصوص الخطابية ، فهو وصف لإيقاع متردد في كلمتين مفردتين غير داخلتين في تركيب جملة ، وقد تحتوي الجملة في سياقها على كلمتين متفتحتين في آخر حرف فيها ، ولكنهما لا يؤذنان بانتهاء معنى ، ولا يفصلان بين شطرين في الكلام ولا يحسن الوقوف عندهما ، هاتان الكلمتان يعدّان سجعاً ، اذ يعتمد على تكرار الحرف الأخير من الفقرة في نهاية الفقرة التالية لها<sup>(٢٥)</sup> .  
ومنه ما روي عن اسحاق بن عمار ، قال : سمعت ابا عبد الله(ع) يقول : ((إن صلة الرّحم والبرّ ، ليهوّنان الحسابَ ويعصمان من الذّنوب فصلوا أرحامكم وبرّوا بإخوانكم ولو بحسن السّلام وردّ الجواب))<sup>(٢٦)</sup> .

فضلاً عمّا حققه السجع من نغمة موسيقية جميلة ، تطرب لها النفوس ، فقد حقق ربطاً معنوياً لخيوط الخطاب الواحد ، فالشكل الإيقاعي يتخذ من حرف الروي (الباء) مشروعاً صوتياً في انجاز دلالاته ، إذ يلحظ القرينة تختم بحرف (الباء) في القرائن (الحساب - الذنوب - الجواب) ، وهو ما يوفر سجعاً يعمل على تحقيق الإيقاع في الخطاب ، ومشاهدة التركيب النحوي أنه يأتي في الفقرتين الأوليتين بصيغة التنثية وهذا يحقق توازياً في التركيب النحوي في بناء الخطاب ، ثم يأتي في خاتمة الخطاب سجعاً مفرداً وهو بهذا قد انزاح عن النسق التركيبي وحقق عدولاً صرفياً بالانتقال من المثني الى المفرد ، فبعد أن أخبر عن دور صلة الرّحم والبرّ في النشاطين الآخرة والدنيا انتقل الى الجملة الأمرية بعد (فاء) الاستئناف ، فأمر بصلة الرّحم وبرّ الإخوان حتى لو كان بأدناها حسن السلام وردّ الجواب ، وهذا يؤكد أن العدول الدلالي كان له مبرره فقد تم بعد الانتقال الأكبر على صعيد الجمل الخبرية والجمل الاستئنافية لتحقيق الفصل ، فهو اختلاف تام لخبرية الجمل الاولى لفظاً ، وهذا

الاتفاق في الصيغ التركيبية المتشكل من الاتفاق في التثنية في (يهونان الحساب - يعصمان من الذنوب) (٢٧).

ومن الألوان البديعية الأخرى التي تزخر بها لغة الخطابات ، والتي حققت للخطاب قيمة موسيقية عالية الجناس ، وهو من الأشكال الصوتية غير الوزنية ، وتكمن أهميته في إحداث الأثر في المتلقي صوتياً ودلالياً ، لذا فهو اتفاق اللفظتين في وجه من الوجوه مع اختلاف معنييهما (٢٨).

ويمثل استخدام الجناس أهم مظهر من مظاهر الاستعانة البديعية لتقوية المعنى ، اذ يجعل الإمام (ع) من التماثل بين الألفاظ دعامة قوية لتقوية المعنى الذي يروم إيصاله الى المتلقي ومن ثم تثبيته في ذهنه.

ومن شواهد ما روي عن ابن يعفور عن ابي عبد الله (ع) أنه كان يقول : ((... اللهم أنت السلام ومنك السلام ، أسألك يا ذا الجلال والإكرام ان تفك رقبتي من النار)) (٢٩). وقوله (ع) : ((لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق التي بينهما لا يعلمها الا العالم أو من علمها إياه العالم)) (٣٠).

يتجسد الجناس في الألفاظ (السلام - السلام) المتماثلين في الحركات والسكنات وأنواع الحروف وأعدادها والمختلفين في العمق ، فالمستوى السطحي يقدم التكرارية التماثلية الخالصة : السلام - السلام ، العالم - العالم ، فالمستوى العميق يعتمد المخالفة ، فالسلام (الأول) من اسمائه تعالى ، وقيل الذي سلم من كل عيب ، والسلام (الثاني) الذي يعطي الرحمة وسلامة العباد من المعائب والمهالك (٣١).

ونلاحظ الكثافة التجانسية الناتجة من تراكم العناصر المكررة والمتمثلة في تكرار (الصوائت والصوامت) معاً ، وهذا له دلالاته التي تعكس جمال الله وجلاله سبحانه وتعالى التي تتعلق ببيان التوحيد الإلهي.

#### التناص :

تعد السيميائية (جوليا كريستيفا) أول من قدم مفهوماً للتناص في منتصف الستينات من القرن العشرين (٣٢) ، وهي بتصورها هذا تكسر الطوق الذي حصر الاتجاه البنيوي فيه نفسه ، لتجعل من النص بنية متحركة تؤثر وتتأثر بنصوص سابقة او لاحقة.

قُدمت للتناص تعريفات كثيرة تعكس التوجهات والمنطلقات المختلفة للدارسين ، ومن التحديدات التي قدمت له نذكر منها تعريفاً لمحمد مفتاح الذي يرى أن التناص يتجسد في دخول نص ما في علاقة مع نصوص أخرى بكيفيات مختلفة ، مما أطلق عليه التعالق

النصي<sup>(٣٣)</sup>.

يتنوع التناس في خطابات الامام الصادق (ع) بما يكشف عما تختزنه ذاكرته المقدسة من موروث ثقافي كبير ومتنوع تمثل في حفظ القرآن الكريم ، وكيف لا وهو القرآن الناطق وكذلك الأحاديث الشريفة والقصص والوقائع التاريخية ... الخ ، بما يعبر عن تواصله الايجابي مع الموروث الثقافي الإسلامي كونه إمام هذه الأمة والقائد والخليفة ، فالإمام (ع) واسع الإحاطة باللغة ونواذرها وغريبها تتلمذ على يد آبائه عليهم السلام وهم أئمة الهدى والعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

تعددت مصادر التناس في خطابات الإمام الصادق (ع) تبعاً لتعدد الروافد الثقافية التي استقى منها نموذج الخطاب فنجد :

### التناس مع القرآن الكريم :

وهذا النوع من التناس يقوم على استحضار الإمام (ع) لبعض آيات القرآن الكريم وتضمينها في خطابه (ع) من ذلك قوله : (نسبة الله إلى خلقه أحداً صمداً أزلياً صمدياً لا ظلّ له يُمسكه وهو يُمسك الأشياء بأظلتها ، عارفٌ بالمجهول ، معروف عند كلّ جاهل ، فردانياً ، لا خَلْفُهُ فيه ولا هو في خلقه ، غير محسوس ولا مجسوس ، لا تدركه الأبصار ، علا فقرب ودنا فبعد وعُصي فغفر وأطيع فشكر ، لا تحويه أرضه ولا تُقْلُهُ سماواته ، حاملُ الأشياء بقدرته ، ديوميّ أزليّ ، لا ينسى ولا يلهو ولا يغلط ولا يلعب ، ولا لإرادته فصلٌ وفصله جزاءٌ وأمره واقعٌ ، لم يلد فيورث ، ولم يولد فيشارك ، ولم يكن له كفواً أحد))<sup>(٣٤)</sup> ، يتناس مع قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤] .

ومنه ما روي عن الهيثم بن واقد الجزري قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : ((إن الله عزّ وجلّ بعث نبياً من أنبيائه الى قومه وأوحى إليه أن قلّ لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا أناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحبب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يُحبون إلى ما يكرهون ، وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحبب إلا تحولت لهم عما يكرهون الى ما يُحبون ، وقُلّ لهم : إن رحمتي سبقت غضبي فلا تقنطوا من رحمتي ، فإنه لا يتعاضم عندي ذنب أغفره ، وقُلّ لهم : لا يتعرضوا معاندين لسخطي ، ولا يستخفوا بأوليائي فإن لي سطواتٍ عند غضبي ، لا يقوم لها شيء من خلقي))<sup>(٣٥)</sup> . إنّ الهدف الذي يروم الإمام (ع) إنجازَه بواسطة خطابه هذا هو ، ترغيب في التوبة والرجوع عن المعصية ووعده بقبولها ووعيد عن

القنوط من رحمته بسبب معصيته وإن عظمت<sup>(٣٦)</sup>. وهذا الخطاب يتناص مع قوله تعالى : ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

ومنه ما روي عن سماعة ، عن أبي عبد الله(ع) قوله : ((من أخرجها من ضلال الى هدى فكأنما أحيها ومن أخرجها من هدى الى ضلال فقد قتلها))<sup>(٣٧)</sup> . يتناص مع قوله تعالى : ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢] . ومنه أيضاً ما روي عن أبي العلاء ، عن أبي عبد الله(ع) قال : ((إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نُكْتَةً من نور فأضاء لها سمعه وقلبه يكون أحرص على ما في أيديكم منكم وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فأظلم لها سمعه وقلبه))<sup>(٣٨)</sup> ، تناص مع قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

يرى بعض الدارسين أن التناص مع القرآن الكريم له غاية أدبية جمالية لأن أسلوب القرآن الكريم هو أرقى أساليب اللغة العربية، بل يمثل الأسلوب الأمثل لها، هذا فضلاً عن ما يضيفه على الصياغة الأدبية من صور وأساليب تزيدها رونقاً وجمالاً<sup>(٣٩)</sup>. ويبرز إلى جانب الغاية الأدبية الجمالية غاية دينية تبرز كثيراً من المواقف في الخطاب.

#### التناص مع الحديث النبوي الشريف :

يقوم هذا النوع من التناص على استحضار الحديث الشريف او جزء منه في الخطاب ، يعلق جرار جينيت على هذا النوع من التناص بأنه يشكل حضوراً فعالاً لنص ما يطلق عليه قديماً بالاستشهاد<sup>(٤٠)</sup>.

ومن شواهد ما روي عن ابن يعفور ، عن ابي عبد الله(ع) أنه كان يقول : ((...اللهم أنت السلام ومنك السلام ، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تفك رقبتي من النار))<sup>(٤١)</sup> يتناص مع الحديث النبوي الشريف المروي عن ثوبان أن رسول الله (ص) يقول عند الانصراف من الصلاة : ((اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام))<sup>(٤٢)</sup> . وهنا يتجلى التماثل على المستوى الصياغي نتيجة التماثل في الناتج الصياغي .

ومن شواهد أيضاً ما رواه محمد الحلبي ، عن ابي عبد الله(ع) قال : ((من فارق جماعة المسلمين قيد شبر فقد خلع ربة\* الإسلام من عنقه))<sup>(٤٣)</sup>.

يتناص مع قوله (ص) : (نصر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها من لم يسمعها ، فربّ حامل غير فقيه وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم ، فإنّ دعوتهم محيطّة من ورائهم ، المسلمون إخوة تتكافى دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم)<sup>(٤٤)</sup>، وقد رواه حمّاد بن عثمان ، عن أبان ، عن أبي يعفور .

ومن شواهد ما روي عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : ((المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة ، وإن روح المؤمن لأشدّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها))<sup>(٤٥)</sup>. يتناص مع قوله (ص) : ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))<sup>(٤٦)</sup> الخطابان يتحدان في تأدية وظيفة إبلاغية واحدة يعمل خطاب الإمام الصادق (ع) على التناص مع خطاب الرسول (ص) ، حيث أن أسلوب التشبيه اعتمد في كلا الخطابين لتقريب إدراك الفكرة تبعاً لتوظيف الحواس وتم تشبيه واحد في الخطاب النبيوي وتشبيهين في خطاب الإمام الصادق (ع) ، وجميع ذلك تم بتناص مع خطاب الرسول (ص) بطريقة تجعل المتلقي مشتركاً في إنجاز مضمونه ، بوساطة تناصه مع الخطاب النبيوي وتوظيفه أولاً ، مما يوفر شداً للمتلقي فضلاً عن التكثيف الصوري عبر مراكمة صورتين تشبيهيتين ثانياً.

### التناص مع القصة أو الواقعة التاريخية :

تعبر القصة أو الواقعة التاريخية عن خلاصة تجارب مر بها الإنسان ، ويمثل هذا الرافد الثقافي موروثاً شعبياً تختزنه ذاكرة الأفراد ، يتبادلونه فيما بينهم شفاهة<sup>(٤٧)</sup>.

ومنه ما روي عن الفضل بن عمر ، قال : وجه أبو جعفر المنصور إلى الحسن بن زيد وهو واليه على الحرمين ان أحرق على جعفر بن محمد داره ، فألقى النار في دار أبي عبد الله (ع) ، فأخذت النار في الباب والدھليز ، فخرج أبو عبد الله (ع) يتخطى النار ويمشي فيها ويقول : ((أنا ابن أعزاق الثرى ، أنا ابن إبراهيم خليل الله (ع)))<sup>(٤٨)</sup>. في الخطاب على إيجازه يتناص مع قصة إبراهيم (ع) مع النمرود وألقاه في النار ، فقد وظف الصورة الاستعارية قبل استدعاء الموروث التراثي القصصي ، إذ شبه الأرض وأهلها بالأشجار والأنبياء بالأصول في أن بقاءها وثباتها بهم وأن بقاء الأشجار وثباتها بالأصول ، ثم خص إبراهيم (ع) بالذكر ؛ لأن وقوعه في النار وعدم تأثيرها فيه مشهور وفي القرآن الكريم مذكور<sup>(٤٩)</sup> ، ثم يفتح من الصورة الاستعارية المكتنزة بالدلالة على الإخبار المباشر عن

انتسابه الى النبي ابراهيم(ع) خليل الله ، في التناسل مع الواقعة التاريخية التي تجعل من توظيفها بيان المقام الوجودي لهم ، هذا الفعل الذي قام به الإمام الصادق(ع) ليس غريباً في ردّ من تحكمت به النوازع والأهواء ، بأن الفعل ينطلق من مقام الرتبة التكليفية لحامل الرسالة برعاية إلهية لإثبات حجية (الإمام) ووجوب طاعته ، فالإمام الصادق(ع) يجلب تلك الواقعة التي جاءت على إيجاز الخطاب عن طريق التناسل لإنجاز تلك المضامين مع مراعاة سبب إنجاز الخطاب ، ومراعاة مقتضى الحال ربما كانت إحدى الأسباب التي جعلت الإمام الصادق(ع) يستدعي تلك الواقعة التي خلقت ذلك النسق المضمّر في الخطاب.

وبذلك يصبح التناسل منسجماً مع البنية التركيبية للخطابات محققاً بذلك مقصدية الإمام الصادق(ع) ، وبهذا يمكننا القول إن الخطابات نشاط لغوي ، يعكس تشبع الإمام(ع) بالروافد الثقافية المتعددة للحضارة العربية فضلاً عن علمه اللدني.

## الهوامش :

- ١- ينظر : الوظائف التداولية في اللغة العربية ، أحمد المتوكل : ٨ ، وينظر : التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي : ٢٩ .
- ٢- ينظر : التعالق النصي ، عمر عبد الواحد: ٢٨ .
- ٣- ينظر : معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) ، عبد الله ابراهيم ، سعيد الغانمي ، عواد علي: ٨٤ .
- ٤- المصدر نفسه .
- ٥- ينظر : استراتيجيات الخطاب ، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٢١ .
- ٦- المصدر نفسه : ٢١ .
- ٧- المصدر نفسه : ٢٤ .
- ٨- ينظر : النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان ديك : ٢٥٧ .
- ٩- ينظر : المقاربة التداولية ، فرانسواز ارمينيكو : ٨٠ .
- ١٠- ينظر : المصدر نفسه : ٨٠ .
- ١١- ينظر : المصدر نفسه : ٧ .
- ١٢- ينظر : علم لغة النص النظرية والتطبيق ، عزة شبل أحمد .
- ١٣- ينظر : القارئ في النص (نظرية التأثير والاتصال) ، نبيلة ابراهيم ، مج ٥ : ١٠١ .
- ١٤- ينظر : علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ، تون فاندريك: ١٣٦ .
- ١٥- ينظر : نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الثري ، حسام أحمد فرج : ٢٤ .
- ١٦- ينظر : المصدر نفسه .
- ١٧- ينظر : الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، أسد حيدر : ٤٩/٣ .
- ١٨- المصدر نفسه : ٤٩/٣ ، وينظر : الصادق جعفر ، حسين الشاكري : ١٢٧ .
- ١٩- ينظر : المصدر نفسه : ١٢٧ .
- ٢٠- شرح أصول الكافي : ٣٠١/٩ .
- ٢١- شرح أصول الكافي : ٣٠١/٩-٣٠٢ .
- ٢٢- المصدر نفسه : ٣٠٢/٩-٣٠٣ .
- ٢٣- ينظر : المصدر نفسه : ٣٠٣/٩ .
- ٢٤- ينظر : المصدر نفسه : ٣٠١/٩ .
- ٢٥- وجوه من الاعجاز الموسيقي في القرآن ، د. محي الدين رمضان : ٤٦-٤٨ .
- ٢٦- شرح أصول الكافي : ٥٣١/٢ .
- ٢٧- ينظر : الأشكال البديعية في خطاب الإمام جعفر بن محمد الصادق : ٢٩٦ .
- ٢٨- ينظر : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ابو محمد القاسم الانتصاري السجلماسي (المتوفي بعد ٨٠٠هـ) ، تحقيق وتقديم : جلال الغازي : ص ٤٨٢ .

- ٢٩- شرح أصول الكافي : ٧٩٤/٢ .
- ٣٠- المصدر نفسه : ٢٩/٥ .
- ٣١- شرح أصول الكافي : ٩٨/٦ .
- ٣٢- ينظر : التعالق النصي ، عمر عبد الواحد : ٣٧ .
- ٣٣- ينظر : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، محمد مفتاح : ص ١٢١ .
- ٣٤- شرح أصول الكافي : ٦٨/١ .
- ٣٥- المصدر نفسه : ٦٠٦/٢ .
- ٣٦- ينظر : شرح أصول الكافي : ٢٥٤/٩ .
- ٣٧- المصدر نفسه : ٥٦٨/٢ .
- ٣٨- المصدر نفسه : ٥٧٠/٢ .
- ٣٩- ينظر : نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الشعري ، حسام أحمد فرج : ٢١٩ .
- ٤٠- ينظر : التعلق النصي ، عمر عبد الواحد : ٦٦ .
- ٤١- شرح أصول الكافي : ٧٩٤/٢ .
- ٤٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) : ٨٤/٦ .
- \* ريقة : عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة او يدها او رجلها تمسكها وإضافتها الى الإسلام من باب إضافة المشبه به الى المشبه والوجه هو الحفظ من الوقوع في المهالك . ينظر : القاموس المحيط ، مادة ريق ، وشرح أصول الكافي : ٢٠/٧ .
- ٤٣- المصدر نفسه : ٨٤/٧ .
- ٤٤- المصدر نفسه : ١٤/٧ .
- ٤٥- شرح أصول الكافي : ٥٣٧/٢ .
- ٤٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٧١/٤ .
- ٤٧- ينظر : نظرية علم النص ، حسام أحمد فرج ، ص ٢٢٣ .
- ٤٨- شرح أصول الكافي : ٣٦٠/١ .
- ٤٩- ينظر : شرح أصول الكافي : ٢٤٦/٤ .

### المصادر

- ١- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي - ليبيا ، ط ١ ، ٢٠٠٤ .
- ٢- الأشكال البيعية في خطاب الإمام جعفر بن محمد الصادق ، حيدر برزان سكران العكيلي ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة البصرة ، ٢٠١١ م .
- ٣- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، اسد حيدر ، ط ١ ، توزيع مكتبة الصدر (ايران) ودار الكتاب العربي بغداد شارع المتبني ، المقدمة الأولى ، النجف الاشرف ، ١٩٥٦ م .

- ٤- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط٣ ، ١٩٩٢ .
- ٥- التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥ .
- ٦- التعالق النصي ، عمر عبد الواحد ، دار الهدى للنشر ، المينا - مصر ، ٢٠٠٣ .
- ٧- شرح أصول الكافي ، محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ) ، تحقيق علي عاشور ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٨م .
- ٨- الصادق جعفر ، حسين الشاكري ، نشر الهادي ، قم ، ط١ ، ١٤١٧هـ .
- ٩- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ، تون فانديك ، ترجمة : سعيد حسن البحيري ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، مصر ، ط١ ، ١٩٩٧ .
- ١٠- علم لغة النص النظرية والتطبيق ، عزة شبل أحمد ، مقدمة المؤلف ، مكتبة الآداب ، القاهرة - مصر ، ط١ ، ٢٠٠٧ .
- ١١- القارئ في النص (نظرية التأثير والاتصال) ، نبيلة ابراهيم ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد الأول (أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر) ، مج٥ ، ١٩٨٤ .
- ١٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .
- ١٣- معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) ، عبد الله ابراهيم ، سعيد الغانمي ، عواد علي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٢ .
- ١٤- المقاربة التداولية ، فرانسواز ارمينكو ، ترجمة د. سعيد علوش ، مركز الانماء القومي ، د.ت .
- ١٥- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ابو محمد القاسم الانصاري السجلماسي (المتوفي بعد ٨٠٠هـ) ، تحقيق وتقديم : جلال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ط١ ، ١٩٨٠م .
- ١٦- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان ديك ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق ، ط١ ، ٢٠٠٠ .
- ١٧- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الثري ، حسام أحمد فرج ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧ .
- ١٨- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الشعري ، حسام أحمد فرج ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧ .
- ١٩- وجوه من الاعجاز الموسيقي في القرآن ، د. محي الدين رمضان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمّان ، ط١ ، ١٩٨٢م .
- ٢٠- وجوه من الاعجاز الموسيقي في القرآن ، د. محي الدين رمضان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمّان ، ط١ ، ١٩٨٢م .
- ٢١- الوظائف التداولية في اللغة العربية ، أحمد المتوكل ، دار الثقافة ، الدار البيضاء - المغرب ، ط١ ، ١٩٨٥ .

**Abstract**

Deliberation and speech verbs on Imam Sadiq's

This new tropism try for overlooking (semantically level) meaning of literalism category to surrounding the building of speech and acquaintance with all its facts in the capacity of that the speech is a linguistic letter that the speaker functioning it for the purpose of continuity with others approaching of this artistic speeches an deliberative boundary approaching imposes on us to overlooking the sight to speech text to delay as soon as meaning and linguistic contents to upon that . It is a linguistic activity in it immam Sadiq's try to express the purpose and destinations aim to develop the artificial personality in pronunciations and phrases , and effecting in the receptors in any way in the capacity that the language not only a mean for social continuity , but also It is a tool for changing the facts and effecting in the people and making its events.